١٤

فريضة الصيام

يقول الله ، تبارك وتعالى :

(يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)[١] .

وتفيد هذه الآية أن الصوم عبادة مفروضة فى جميع الأديان ، وعند جميع الأمم ، وإن اختلفت كيفيته ووقته .

ولقد بدأ نزول الوحى على الرسول ﷺ فى رمضان . وفى رمضان كذلك نزلت الكتب السماوية من قبل ، على إبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام . . .

---

(١) الآية ١٨٣ سورة البقرة .

قال رسول الله ﷺ :

« أنزلت صحف إبراهيم فى أول ليلة من رمضان ، وأنزلت التوراة لستٍّ مضين من رمضان ، والإنجيل لثلاث عشرة ليلة خلت من رمضان ، وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان » .

فما الذى يدل عليه هذا الترابط بين نزول الكتب السماوية فى رمضان ، وبين فرض الصيام على أمة محمد ﷺ كما فرض على الأمم من قبلهم ؟

إن نزول الكتب السماوية : صحف إبراهيم ، والتوراة ، والإنجيل ، والقرآن . . هداية للبشر ونورًا على طريق الإنسانية ، نعمة كبرى من الخالق — جل جلاله — تستحق الشكر من عباده . وقد جعل الله هذا الشكر الذى يرضاه ويتقبله فى صورة الصوم ، لأنه تقرب إلى الله بالتجرد عن أخص مقومات البشرية . . الطعام والشراب والشهوة . وفرض الله — سبحانه — عبادة الصوم هذه فى الشهر الذى أنزل فيه القرآن ، وأنزلت فيه من قبل صحف إبراهيم والتوراة والإنجيل .

* * *

وقد فرض الله الصيام فى العام الثانى من الهجرة . وكان الرسول ﷺ عندما هاجر من مكة إلى المدينة يصوم يوم عاشوراء ، فلما فرض صيام شهر رمضان نسخ صيامه كل صوم ، وصار ما عداه تطوعًا من شاء صامه ومن شاء تركه .

وللصوم عند الله منزلة كبيرة بين سائر العبادات ، يقول الله — تبارك وتعالى — فى الحديث القدسى :

« كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى ، وأنا أجزى به » .

ويقول الرسول ﷺ :

« من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه » .

وقال ﷺ لما حضر رمضان :

« يا أيها الناس : قد جاءكم رمضان شهر عظيم مبارك ، افترض الله عليكم صيامه ، تفتح فيه أبواب الجنة ، وتغلق فيه أبواب الجحيم ، وتغل فيه الشياطين . فيه ليلة خير من ألف شهر » .

وقال ﷺ :

« والذى نفس محمد بيده ، لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك » .

وقال : « من أفطر يومًا من رمضان فى غير رخصة رخصها الله له ، لم يقض عنه صيام الدهر وإن صامه » .

وقال الحسن البصرى :

« إن الله تعالى جعل رمضان مضمارًا لخلقه ، يتسابقون فيه بطاعته إلى مرضاته ، فسبق قوم ففازوا ، وتخلف آخرون فخابوا ، فالعجب من الضاحك اللاعب فى اليوم الذى يفوز فيه المحسنون ويخسر المبطلون » .

* * *

والصوم هو الإمساك عن الطعام والشراب ومباشرة النساء ، من طلوع الفجر إلى غروب الشمس .

ولكن الإمام الغزالى يرى أن الصوم ثلاث درجات :

● صوم العموم : وهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة .

● صوم الخصوص : وهو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام .

● صوم خصوص الخصوص : وهو صوم القلب عن الهمم الدنية والأفكار الدنيوية ، وكفه عما سوى الله عز وجل بالكلية .

ويقول الإمام الغزالى : « إن هذه الدرجة الثالثة من الصوم ، يحصل الفطر فيها بالفكر فيما سوى الله – عز وجل – واليوم الآخر ، وبالفكر فى الدنيا إلا دنيا تراد لدين » .

ونحن لا نطمع فى أن نصل إلى هذه الدرجة الثالثة ، وإن كان الطموح فى أمر الدين لا يقل شرفًا وهمة عن الطموح فى أمر المعاش ، ولكن الذى يتصل بحقيقة الصوم وحكمته اتصالا وثيقًا هو ما أورده الإمام الغزالى فى الدرجة الثانية ، وهو كف الجوارح عن الآثام ، وهذا يستدعى بالضرورة أن يتحرى الإنسان فى صيامه ما هو أبعد من شهوة البطن والفرج . هناك شهوة الجوارح : السمع والبصر واللسان واليد والرجل وغيرها من الأعضاء . . إن الصوم لا يتم معناه وتتحقق ثمرته إلا بإمساك هذه الجوارح عن المنكر :

وفى ذلك يقول الرسول ﷺ :

« كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش » .

ويقول : « من لم يدع قول الزور والعمل به ، فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » .

ويقول : إنما الصوم جُنة ، فإذا كان صوم أحدكم فلا يرفث ولا يجهل ، فإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل : إنى صائم ، إنى صائم » .

ويقول : « إن الصوم أمانة ، فليحفظ أحدكم أمانته » .

هذا وليس بصائم من ترك ما أبيح له ، ووقع فيما حرم عليه . ذلك لأن الصائم يمسك عن الطعام والشراب ومباشرة الزوجة ، وكل هذا من الطيبات التى أحلها الله . امتثالاً لأمر الله تعالى وتقربًا إليه بالطاعة والعبودية والإخلاص . فكيف بهذا الصائم لا يمسك بصره عن النظر إلى ما حرم الله من عورات النساء ، ولا يمسك لسانه عما نهى الله عنه من الكذب والنميمة ، ولا يمسك أذنه عن سماع الأكاذيب

والشائعات ، ولا يمسك يده عن السرقة والتطفيف فى الكيل والميزان ، ولا يمسك رجله عن السعى إلى ما يغضب الله ؟

إن مثل هذا هو الذى يطلق عليه وصف : الصائم المفطر ! !

• • •

هذا وجدير بالإنسان بعد أن تذوق حلاوة العبادة فى شهر رمضان ، واستمتع بثمرات الصوم فى جسمه وروحه ، ألا ينقطع عن ممارسة هذه العبادة تطوعًا بعد انقضاء رمضان .

إن صيام التطوع يدل على قوة الإخلاص ، فى العبادة لله – تبارك وتعالى – وهو من النوافل التى قال عنها – سبحانه – فى حديثه القدسى :

« ما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ولئن سألنى لأجيبنه ، ولئن استعان بى لأعينه » .

ذلك لأن النوافل ، وهى العبادات غير المفروضة ، إنما يكون الدافع إليها شدة الرغبة فى الإقبال على الله ، والاستزادة من فضله ورضوانه ، وأداء حق الشكر على نعمه وآلائه ، ولهذا تبلغ بصاحبها مقام الحب الإلهى ، وما يفيضه على المؤمن من أنوار الهداية ومنح العناية .

وأول ما يلحق برمضان من هذه النوافل ، صيام ستة أيام من شوال .

وعن ذلك يقول الرسول ﷺ :

« من صام رمضان ثم أتبعه ستًا من شوال فذاك صيام الدهر » ، أى كأنه صام العام كله .

يفسر ذلك قوله عليه الصلاة والسلام :

« من صام رمضان وستة أيام بعد الفطر كان تمام السنة . من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » .

ذلك أن كل يوم من أيام رمضان يعدل صيام عشرة أيام ، فالشهر يعدل ثلثمائة يوم ، وستة من شوال تعطى فى ميزان الله صيام ستين يومًا فتلك أيام العام كله . . ثلاثمائة وستون .

وإن فى صيام ستة أيام من شوال لحكمة جليلة ، إنه امتداد لأسلوب العبادة الذى ألفه الصائم فى رمضان ، لفترة يتدرج فيها بين الصيام المستمر لمدة ثلاثين يومًا ، وبين الإفطار بقية العام .

١٥

التهجد وقيام الليل

حين يرخى الليل سدوله ، وتهدأ حركة الحياة والأحياء ، ويأوى الناس إلى مضاجعهم بعد تعب النهار ، وتستغرق الأجسام فى النوم والأحلام .

فى ذلك الوقت نجد من الناس فريقين لا يطرق النوم عيونهم ، يفضلون ليلهم ساهرين والناس نيام ، ولكن شتان بين فريق وفريق .

أما أولهم ففريق يريد الهروب من واقعه والتخلص من متاعبه ، فيضل الطريق إلى الملجأ المكين الذى يجد فيه سكينة النفس وطمأنينة القلب ، وتستهويه الشياطين إلى دور الملاهى وموائد القمار ومجالس السوء .. يحاول أن يغرق فيها همومه وينسى نفسه . وإنه ليظفر من ذلك ببعض مايريد ، ولكنه ينصرف آخر الليل محطم الأعصاب خاوى الجيب كئيب النفس .. وإن كئوس المتعة التى شربها ليطفئ بها ظمأه ويغرق فيها متاعبه ، لم تزده إلا ظمأ وحرقة ، ولم يلبث أن يتبدد أثرها فى

جسمه ونفسه ، ليفيق على واقعه الأليم الذى حاول الهروب منه ، فإذا هو مازال يرسف فى أغلاله ، وقد أضاف إلى ذلك أنه أصبح أسير هذه العادة التى استهوته إليها الشياطين .

هذا فريق من الناس يحيى الليل ويميت قلبه ونفسه .

وأما الفريق الآخر فما أبعد الفرق ، وما أشد اختلاف الصورة .

إنهم قوم استقام منهجهم بالنهار والليل ، يعرفون حق الله وحق أنفسهم فى معاشهم بالنهار ، ويقومون بشكر الله على فضله حين تنام العيون !

يصفهم الإمام على – كرم الله وجهه – فيقول :

« أما الليل فصافون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن يرتلونه ترتيلا .. وأما النهار فحلماء علماء ، أبرار أتقياء » .

ومن أوصافهم أنهم رهبان بالليل فرسان بالنهار !

وإذا كان الفريق الأول يحاول أن يفر من همومه وأوزاره بإغراق نفسه فى المعاصى والملذات المحرمة ، فإن الفريق الآخر يفر إلى الله متجرداً عن عيوبه مستغفراً لذنوبه ، هم يلجأون إلى الله فى هدأة الليل وقد سكنت من حولهم الحياة ونامت العيون ، يحيون ليلهم بالذكر والصلاة والاستغفار والدعاء ، فتنسكب فى أرواحهم الطمأنينة وتغشاهم الرحمة ، وتمتلئ نفوسهم قوة بالله فى مغالبة متاعب الحياة .

وقيام الليل من أعظم القربات إلى الله ، وهو فى رمضان أعظمها قربة وأكثرها ثواباً منه فى سائر الأوقات ، وهو فى ليلة القدر قمة العبادة فى شهر رمضان !

ولقد وصف الله – تبارك وتعالى – عباد الرحمن الذين كرمهم بأن نسبهم إلى نفسه فقال مما وصفهم به :

(وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وقِيامًا) [1] .

وقال تعالى فى وصف المؤمنين :

(تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) [2] .

وقيل فى تفسير قوله تعالى :

(وَاسْتَعِينوا بالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ) [3] .

« .. استعينوا بصلاة الليل على مجاهدة النفس ومصابرة العدو . وقال تعالى لرسوله الكريم بعد أن أنزل عليه الوحى : ليهيئه لحمل تبعات الرسالة :

(يأَيُّهَا الْمُزَّمِّل . قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً . نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً . أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً . إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً . إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطأً وَأَقْوَمُ قِيلاً . إِنَّ لَكَ فى النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً . وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً) [4] .

وكان الرسول ﷺ حين انقطع عنه الوحى فترة بعد ليلة : اقرأ .. قد حزن حزنًا شديدًا حتى كاد يتردى مرارًا من رءوس الجبال الشاهقة . ويقول ﷺ :

---

(١) الآية ٦٤ سورة الفرقان .

(٢) الآية ١٦ سورة السجدة .

(٣) الآية ٤٥ سورة البقرة .

(٤) الآيات من ١ إلى ٨ سورة المزمل .

« بينا أنا أمشى إذ سمعت صوتًا من السماء ، فرفعت بصرى فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض ، فرعبت منه ، فرجعت فقلت : زملونى .. زملونى .. فأنزل الله :

(يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ، قُمْ فَأَنْذِرْ ..) (١) .

ثم نزلت عليه سورة المزمل .. أى المدثر ، المتلفف فى ثيابه .. على أسلوب العرب عند الملاطفة ، حين تنادى الشخص بالاسم المشتق من حالته التى هو عليها .. فكان هذا النداء من الله ملاطفة لرسوله وتطمينًا لقلبه ، ثم كانت هذه السورة توجيهًا له إلى قيام الليل ، وما فى القيام من رياضة للنفس وعبادة الله تعالى .

وفى هذه السورة عدة معان لقيام الليل يحسن أن نقف عندها قليلا :

« إن الله – تبارك وتعالى – حين أوجب على رسوله ﷺ قيام الليل ، خيره بين أن يقوم نصفه أو ثلثه أو ثلثيه فقط . فكان الرسول ﷺ وكان أصحابه – اقتداء به – يقومون الليل كله خوفًا من الإخلال بالمقدار المطلوب لعدم التمكن من ضبطه ، واشتد عليهم ذلك حتى تورمت أقدامهم من مشقة القيام . فلما صدقوا الله فى أداء هذه العبادة أنزل الله على رسوله فى آخر هذه السورة قوله تعالى :

(إِنَّ رَبَّكَ يَعلمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى من ثُلثى اللَّيل ونِصفَه وثُلُثَهُ ، وطَائِفَةٌ من الَّذين معكَ ، واللهُ يُقَدِّر اللَّيل والنَّهَار ، علمِ أَلَّن تُحْصوهُ فَتَابَ عَلَيكُم ، فاقْرءُوا ما تيسَّر مِن القُرآن ،

---

(١) الآيتان ١ و ٢ سورة المدثر

علِم أن سيكُون مِنكُمْ مَرضَى . وآخرونَ يضْربون فى الأرض يبتَغُون مِن فَضْل الله وآخرونَ يقَاتِلونَ فى سبيلِ اللهِ فاقرءوا ما تيسَّر مِنه ، وأقِيمُوا الصَّلاةَ وآتوا الزكاةَ وأقرِضوا الله قرضًا حسنًا ، وما تقَدِّموا لأنفسِكم مِن خيرٍ تَجدوهُ عنْد الله هو خيرًا وأعْظم أجرًا ، واستغفروا الله إن الله غفور رحيم)[1] .

● إن المقصود بترتيل القرآن فى قيام الليل ، ليس قراءته فحسب .. ولكن المعنى ينسحب على الصلاة ، لأن الصلاة تسمى قرآنًا ... فذلك قوله تعالى :

(وقرآن الفَجرِ إنَّ قُرْآنَ الفَجْر كَانَ مشهُودًا) .

أى صلاة الفجر ، ويفسر ذلك أيضًا ماورد من كلام الإمام على بن أبى طالب فى وصف المتقين : « أما الليل فصافون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن يرتلونه ترتيلا .. فهم حانون على أوساطهم « فى الركوع » مفترشون « فى السجود » لجباههم وأكفهم وركبهم وأطراف أقدامهم .. »

إن ناشئة الليل ، أى عبادة الليل هى أشد ثباتًا فى القلب . وقيل النفس الناشئة .. أى النفس المتهجدة ، لأنها تنشأ – أى تنهض – من مضجعها للعبادة ، كما أن الإنسان يكون عادة مشغولا بعمله والسعى على معاشه بالنهار ، فلا يستطيع أن يتفرغ للعبادة إلا فى الليل ، حيث تكون العبادة فيه أدعى لحضور القلب ، والانصراف إلى الله عن كل ما عداه .. وهذا هو معنى التبتل إلى الله .

« إن الله – تبارك وتعالى – قد خفف على رسوله وعلى المؤمنين قيام الليل على

---

(١) الآية ٢٠ سورة المزمل .

هذه الصورة ؛ وجعله ميسرًا لمن أراد أن يؤدى هذه العبادة فقال :

(فاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ) .

أى فأدوا ما تيسر من الصلاة . وقوله ﷺ فى قيام الليل : « من استيقظ من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين كتبا من الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات ... »

وقال ﷺ : « صل من الليل ولو قدر حلب شاة » ،

وقدر ذلك بنحو أربع ركعات .

* * *

وفى فضل قيام الليل يقول الرسول ﷺ : « أفضل الصلاة بعد المكتوبة قيام الليل » .

وفى الليل تصفو النفوس من مشاغل الحياة فيكون إقبالها خالصًا على الله . إنها لتجد فى ظلام الليل نور الله يتجلى على عباده فتطيب القلوب بمناجاته وتشرق الوجوه باجتلاء آياته .

قيل للحسن بن على ، رضى الله عنهما :

مابال المتهجدين من أحسن الناس وجوهًا ؟

فقال : لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نورًا من نوره .

وقال لقمان الحكيم لابنه : يابنى لا يكونن الديك أكيس منك ، ينادى بالأسحار وأنت نائم .

وقال سفيان الثورى ، رضى الله عنه :

– إذا كان أول الليل نادى مناد من تحت العرش : ألا فليقم العابدون ، فيقومون ويصلون إلى السحر . فإذا كان السحر نادى مناد : ألا فليقم المستغفرون ، فيقومون ويستغفرون . فإذا طلع الفجر نادى مناد : ألا فليقم الغافلون ، فيقومون من فرشهم كالموتى من قبورهم .

وفى هذا القول معان من قول الرسول ﷺ :

« يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد يضرب مكان كل عقدة : عليك ليل طويل فارقد . فإذا استيقظ فذكر الله انحلت عقدة ، فإن توضأ انحلت عقدة ، فإن صلى انحلت عقده كلها ، فأصبح نشيطًا طيب النفس ، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان » .

ألم يلاحظ أحدكم هذا الشعور حين يستيقظ قبل طلوع الفجر فيتوضأ ويصلى ويذكر الله تعالى ، فإذا هو يستقبل يومه نشيطًا طيب النفس ، فإذا ظل نائمًا فى فراشه حتى تطلع الشمس قام على هذه الحالة التى وصفها الرسول ﷺ .

على أن قيام الليل مع مايبذله الإنسان من جهد العمل بالنهار يحتاج إلى تنظيم وحسن تدبير ، حتى لا يؤدى إلى الإرهاق وتعطيل الإنسان عن معاشه .

وأول ما يجب تدبره فى ذلك أن يحسن الإنسان تقسيم اليوم والليلة بين العمل والنوم والراحة . إن اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة . وحد الاعتدال فى النوم ثمانى ساعات . أفلا يكفيه أن ينفق فى النوم ثلث عمره ؟!

فإذا استطاع أن يقضى هذه الساعات متصلة ، كان له أن ينام مبكرًا ثم يستيقظ فى الثلث الأخير من الليل فيقوم ما بقى منه فى الذكر والصلاة . وإذا شاء نام قليلا واستوفى حظه من النوم فى الليل ، وإنه لواجد فسحة من الوقت تتبقى له يقضيها فى القيام للتهجد والصلاة .

ويكره قيام الليل حتى صلاة الفجر ، لأن ذلك يترك أثره على نشاط الإنسان فيغدو على عمله وهو معرّض للنعاس .. ولقد كان الرسول ﷺ يقوم الليل ما شاء الله أن يقوم ثم ينام حتى يؤذن بلال للصلاة .

وإن من قيام الليل ما لا يشق على أحد مهما كانت ظروفه ، ذلك هو إحياء ما بين المغرب والعشاء .

روى الحسن – رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ سئل عن المراد بقوله تعالى :

(تتجافى جُنُوبُهُمْ عنِ المَضَاجعِ) .

فقال : الصلاة بين العشاءين « المغرب والعشاء » . ثم قال ﷺ :

– « عليكم بالصلاة بين العشاءين ، فإنها تذهب بملاغاة النهار « من اللغو » وتهذب آخره » .

وإن مما يعين على قيام الليل أمورًا منها :

– الإقلال من الطعام والشراب عند تناول العشاء .

– أن يعتاد الإنسان النوم بعض الوقت فى النهار .

– وقبل هذا وذاك أن يستشعر الخوف من الله والرجاء فى رحمته .

إن ذلك كفيل بأن يصرف عنه النوم ، ويشد عزمه قيام الليل ، حيث يجد فى معاناة الخوف والرجاء مايجده العاشق من لواعج الحرمان وأشواق الوصال . وإذا كان الإنسان لا يطرق النوم جفنه إذا شغلته مشكلة من مشكلات الحياة ، أو إذا شفه الشوق إلى حبيب أو قريب ، فكيف تطيق عيناه النوم إذا ما استحضر مشكلة وجوده ومصيره ؟!

وكيف لا ينشط للسهر ولا يستمتع بلذة قيام الليل حيث يخلو الحبيب بحبيبه يناجيه ويتقرب إليه ويستمد من رحمته ونوره ؟

قال الإمام الغزالى رضى الله عنه : روى عن بعض السلف أن الله أوحى إلى بعض الصديقين أن لى عبادًا من عبادى يحبونى وأحبهم ، ويشتاقون إلى وأشتاق إليهم ، ويذكرونى وأذكرهم ، وينظرون إلى وأنظر إليهم . فإن حذوتَ طريقَهم أحببتك ، وإن عدلت عنهم مقتُّك . قال يارب ، وما علامتهم ؟

فذكر من علامتهم أنهم يحنّون إلى غروب الشمس كما يحن الطائر إلى وكره عند الغروب . فإذا جنّهم الليل واختلط الظلام ، وفرشت الفرش ونصبت الأسرة ، وخلا كل حبيب بحبيبه . نصبوا إلىّ أقدامهم وافترشوا إلى وجوههم ، وناجونى بكلامهم وتملقوا إلى بإنعامى . فهم بين صارخ وباك ، وبين متأوه وشاك ، وبين قائم وقاعد ، وبين راكع وساجد . بعينى ما يتحملون من أجلى ، وبسمعى ما يشتكون من حبى . أول ما أعطيهم ثلاث : أقذف من نورى فى قلوبهم فيخبرون عنى كما أخبر عنهم . والثانية لو كانت السموات والأرض وما فيها فى موازينهم لاستقللتها لهم . والثالثة أقبل بوجهى عليهم ، ومن أقبلت عليهم بوجهى لا يعلم أحد ما أريد أن أعطيه .

١٦

ادعونى أستجب لكم ..

يقول الرسول ﷺ :

« إن من الليل ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله تعالى فيها خيرًا من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه ، وذلك كل ليلة » .

وما أجمل أن يتوجه الإنسان إلى الله بالدعاء فى جوف الليل ، وقد هجعت القلوب ونامت العيون .

إن الدعاء عبادة ، كما يقول الرسول ﷺ وهو بالليل أحرى بالإجابة والقبول ، حيث يكون الإنسان قريبًا من رحمة ربه التى يتجلى بها على عباده وفى ذلك يقول الرسول ﷺ :

– ينزل الله تعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول

عز وجل : « من يدعونى فأستجيب له ، من يسألنى فأعطيه ، من يستغفرنى فأغفر له ؟ » .

وإذا كان الله تبارك وتعالى يقول :

(ادعُونى أستَجِبْ لَكُمْ) [1] . وذلك فى أى وقت يتجه فيه الإنسان إلى الله بقلب سليم ، فإن هناك أوقاتًا يكون فيها الدعاء أقرب إلى الإجابة ، ووقت السحر من ساعات الليل .

ومنها الدعاء بين الأذان وإقامة الصلاة ، وعند السجود حيث يكون العبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد ، وأن يدعو الإنسان لأخيه بظهر الغيب .

وخير الدعاء ما ورد فى كتاب الله . ومن ذلك قوله عز وجل :

(... ربَّنا هَبْ لَنَا منْ أزْواجِنا وذُرِّيَّاتِنا قُرة أعْيُنٍ واجعلنا للمُتَّقين إمامًا) [2] .

(ربَّنَا اغْفِرْ لَنَا ولإخْوانِنا الَّذين سبقُونا بالإيمان ولاَ تجعل فى قلُوبِنَا غلاًّ للَّذين آمنُوا ربَّنا إنَّك رءُوفٌ رحيمٌ) [3] .

(ربَّنا لاَ تزغْ قُلُوبنَا بعدَ إذْ هديْتَنَا وهَب لنَا مِن لَّدنْكَ رحمةً إنَّك أنْت الْوهَّابُ) [4] .

---

(١) الآية ٦٠ سورة غافر .

(٢) الآية ٧٤ سورة الفرقان .

(٣) الآية ١٠ سورة الحشر .

(٤) الآية ٨ سورة آل عمران .

(رَبَّنَا لاَ تؤاخِذْنا إنْ نسِينا أوْ أخطأنَا ، ربَّنَا ولاَ تحمِلْ عَلينَا إصرًا كَما حملْته على الَّذين مِنْ قَبلنَا ، ربَّنَا ولا تحَمِّلنَا ما لاَ طَاقةَ لَنا بِه ، واعْفُ عنَّا واغْفِر لَنَا وارْحمنَا أنْت مولاَنَا فَانصرْنَا عَلى القَوْمِ الكافِرين)[1] .

(ربَّنَا آتِنَا فى الدُّنْيا حسَنةً وفى الآخرة حسَنةً وقِنَا عذَاب النَّارِ)[2] .

ثم ماكان يدعو به الرسول ﷺ من مأثور الدعاء .

ومن ذلك قوله : اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال .

وكان من عادته ﷺ حين يقوم للتهجد بالليل أن يتوضأ ثم يتوجه إلى مصلاه ويقوم مستقبلا القبلة ويقول :

« اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ، ولك الحمد أنت بهاء السموات والأرض ، ولك الحمد أنت رب السموات والأرض ، ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ، ومن فيهن ومن عليهن ، أنت الحق ، ومنك الحق ، ولقاؤك الحق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنشور حق ، والنبيون حق ، ومحمد ﷺ حق . اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت

---

(١) الآية ٢٨٦ سورة البقرة .

(٢) الآية ٢٠١ سورة البقرة .

وبك خاصمت وإليك حاكمت . فاغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وأسرفت ، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت ، اللهم آت نفسى تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها ، اللهم اهدنى لأحسن الأعمال لا يهدى لأحسنها إلا أنت ، واصرف عنى سيئها لا يصرف سيئها إلا أنت ، أسألك مسألة البائس المسكين ، وأدعوك دعاء المفتقر الذليل ، فلا تجعلنى بدعائك رب شقيًا ، وكن بى رءوفًا رحيمًا ، ياخير المسئولين وأكرم المعطين » .

هذا وللمرء أن يدعو الله بما شاء مما يصلح دنياه وآخرته ، وأن يكثر من الدعاء ما استطاع فإن فى ذلك مرضاة لله تبارك وتعالى . يقول الرسول ﷺ :

« سلوا الله تعالى من فضله فإن الله يحب أن يُسأل ، وأفضل العبادة انتظار الفرج » .

ويقول ﷺ :

« ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها ، حتى يسأل شِسع (سير) نعله إذا انقطع » .

فإذا أبطأت الإجابة فإن لذلك أسبابًا منها :

أن يكون الداعى مقصرًا فى حق الله أو حق الناس فذلك حجاب دعوته ، أو يكون رجلا صالحًا يدخر الله له أفضل مما طلب . قال الرسول ﷺ :

« مامن رجل يدعو الله تعالى إلا استجاب له ، فإما أن يعجل له فى الدنيا ، وإما أن يدخر له فى الآخرة ، وإما أن يكفر عنه من ذنوبه بقدر مادعا ، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم أو يستعجل » .

ومن المؤمنين من تسمو مراتبهم فيكتفون بالثناء على الله تبارك وتعالى ، ويشغلهم حمده والثناء عليه عن مسألته والتوجه إليه بالدعاء ، وفى هؤلاء يقول الله تبارك وتعالى فى حديثه القدسى :

– « من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » .

وعن الحسين بن الحسن المروزى قال : سألت سفيان بن عيينة عن أفضل الدعاء يوم عرفة ، فقال :

– « لا إله إلا الله وحده لا شريك له » .

قلت له : هذا ثناء وليس بدعاء .

فذكر له هذا الحديث القدسى : ثم قال سفيان : أما علمت ما قال أمية بن أبى الصلت حين أتى عبد الله بن جدعان (من أجواد العرب) فقال :

أأذكُر حاجتى أم قد كفانى
حـيـاؤك إن شيـمـتك الحـيـاء
وعلمُك بالحقوق وأنت فرعٌ
لك الحسب المهذَّب والسناء
إذا أثنى عليك المرءُ يومًا
كـفـاه من تـعـرّضِه الثـنـاء

ثم قال سفيان : هذا مخلوق يكتفى بالثناء عليه دون مسألة ، فكيف بالخالق ؟!

وأما الاستغفار فهو الدعاء بطلب المغفرة ، إن كل إنسان معرض لأن يخطئ أو يذنب ، وإن من أسماء الله تبارك وتعالى الغفار الغفور التواب الرحيم ..

يقول – جل شأنه – فى وصف المتقين :

(والَّذِين إذَا فَعلُوا فاحشَةً أوْ ظَلَمُوا أنفُسهم ذَكروا الله فَاستَغْفروا لِذنُوبِهِمْ ، ومنْ يغْفر الذُّنُوب إلاَّ الله ، ولَم يصِرُّوا علَى مافعَلوا وهُمْ يعْلَمونَ)[1] .

(١) الآية ١٣٥ سورة آل عمران .

وقال فى وصف هؤلاء :

(الصابرين والصَّادقين والقَانِتِين والمنْفِقينَ والمُستغْفرين بالأسحار)[1] .

وقال تعالى :

(ومنْ يعْملْ سُوءًا أوْ يظلم نَفْسهُ ثُم يستغفرِ الله يجد الله غَفُورًا رحيمًا)[2] .

وقال ﷺ :

« إن أفضل الاستغفار : اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ماصنعت وأبوءُ (أرجع) لك بنعمتك علىّ ، وأبوء على نفسى بذنبى ، فقد ظلمت نفسى واعترفت بذنبى ، فاغفر لى ذنوبى ما قدمت منها وما أخرت ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » .

على أن للاستغفار شروطًا لا يصح ولا يكون مقبولا عند الله إلا بها .

قال رجل بحضرة الإمام على ، رضى الله عنه : أستغفر الله .

فقال له كرم الله وجهه :

– « ثكلتك أمك .. أتدرى ما الاستغفار ؟ الاستغفار درجة العليين ، وهو اسم واقع على ستة معان :

- أولها الندم على مامضى ..
- والثانى العزم على ترك العودة إليه أبدًا ..

---

(١) الآية ١٧ سورة آل عمران .

(٢) الآية ١١٠ سورة النساء .

• والثالث أن تؤدى إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملس ليس عليك التبعة .

• والرابع أن تعمد إلى كل فريضة عليك ضيعتها فتؤدى حقها .

• والخامس أن تعمد إلى اللحم الذى نبت على السحت فتذيبه بالأحزان حتى تلصق بالجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد ...

• والسادس أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية ... فعند ذلك تقول : أستغفر الله » .

وكانت رابعة العدوية – رضى الله عنها – تقول : إن استغفارنا يحتاج إلى استغفار !

ومن فضل الله تعالى على المستغفرين ، أنه يستر عيوبهم ويغفر ذنوبهم يزيدهم فضلا فيمنحهم الرزق الوفير .

قال تبارك وتعالى :

(فقُلْتُ استغْفروا ربَّكم إنَّه كَانَ غَفَّارا . يُرسل السَّماء عليْكُم مِّدْرارًا . ويمددْكُمْ بِأمْوالٍ وبنِين ويجعَل لَّكُمْ جنَّاتٍ ويجعل لَّكُم أنْهارًا)[1] .

---

(١) الآيات ١٠ و١١ و١٢ سورة نوح .

١٧

اذكرونى .. أذكركم

للذكر معان وصور كثيرة :

– فالذكر هو القرآن الكريم كما ورد ذلك فى آيات كثيرة ؛ يقول الله تبارك وتعالى :

(إنا نَحْن نزَّلنَا الذِّكَر وإنَّا لهُ لحافظُون)[١]

(وهَذا ذكرٌ مُباركٌ أنزلنَاهُ أفأنتُم لَه منكِرونَ)[٢]

(إنْ هو إلاَّ ذِكرٌ وقرآنٌ مُبين)[٣] .

---

(١) الآية ٩ سورة الحجر .

(٢) الآية ٥٠ سورة الأنبياء .

(٣) الآية ٦٩ سورة يس .

وهذا فإن تلاوة القرآن الكريم والاستماع إليه ، وتدبر معانيه وتمثلها فى القول والعمل ، أفضل أنواع الذكر وأعمقها أثرًا فى النفوس وأكثرها قبولا عند الله .

والذكر يكون بمعنى حضور القلب وظهور برهان الله :

يقول الله تبارك وتعالى :

(إنَّ الَّذِين اتَّقوا إذا مَسَّهم طَائف مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكروا فإذَا هُم مُبْصرُون)[1] .

(ولَقَدْ هَمَّتْ به وهَمَّ بِهَا لَولا أنْ رأى بُرْهانَ ربِّه)[2] .

(واذْكُر ربَّكَ فى نَفْسِك تَضَرُّعًا وخِيفَةً)[3] .

(واذْكر ربَّك إذَا نسِيت وقُل عسى أنْ يهدِينِ ربى لأقرب مِنْ هَذَا رشَدًا)[4] .

ويكون الذكر باللسان وهو رياضة الجوارح تستثير به كوامن النفس ، وحضور القلب وتنشغل به عن اللغو ، وفى كلٍّ خير .

يقول الله تبارك وتعالى :

(ألا بِذكْر الله تَطمَئِنُّ القلوبُ)[5] .

---

(١) الآية ٢٠١ سورة الأعراف .

(٢) الآية ٦٤ سورة يوسف .

(٣) الآية ٢٠٥ سورة الأعراف .

(٤) الآية ٢٤ سورة الكهف .

(٥) الآية ٢٨ سورة الرعد .

ويقول رسول الله ﷺ :

– « ماعمل ابن آدم من عمل أنجى له من عذاب الله من ذكر الله عز وجل .

قالوا : يارسول الله ولا الجهاد فى سبيل الله ؟

قال : ولا الجهاد فى سبيل الله إلا أن تضرب بسيفك حتى ينقطع ، ثم تضرب به حتى ينقطع ثم تضرب به حتى ينقطع » .

وقال ﷺ :

– « سبعة يظلهم الله – عز وجل – بظله يوم لا ظل إلا ظله » .

ومن هؤلاء السبعة رجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه من خشية الله .

ويقول ﷺ :

– « ماجلس قوم مجلساً يذكرون الله عز وجل ، إلا حفت بهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ، وذكرهم الله تعالى فيمن عنده » .

وقال ﷺ :

– إن لله ملائكة سياحين فى الأرض .. يطوفون فى الطرق يلتمسون أهل الذكر ، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا : هلموا إلى حاجاتكم . فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا ، فيسألهم ربهم وهو أعلم منهم : ما يقول عبادى ؟

فيقولون : يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك ... » .

فيقول : هل رأونى ؟ فيقولون : لا والله ما رأوك .

فيقول : كيف لو رأونى ؟ فيقولون : لو رأوك كانوا أشد لك عبادة وأشد تمجيداً وأكثر تسبيحاً .

فيقول : فمايسألونى ؟ فيقولون : يسألونك الجنة .

فيقول : وهل رأوها ؟ فيقولون : لا والله يارب مارأوها .

فيقول : فكيف لو رأوها ؟ فيقولون : لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصًا ، وأشد لها طلبًا ، وأعظم فيها رغبة .

قال : فمم يتعوذون ؟ فيقولون : من النار .

فيقول الله : هل رأوها ؟ فيقولون : لا والله يارب ما رأوها .

فيقول الله : فكيف لو رأوها ؟ فيقولون : لو رأوها كانوا أشد منها فرارًا ، وأشد لها مخافة .

فيقول : فأشهدكم أنى قد غفرت لهم .

فيقول ملك من الملائكة : فيهم (فلان) عبد خطَّاء ليس منهم ، إنما جاء لحاجة .

فيقول : وله قد غفرت ، هم القوم لا يشقى بهم جليسهم ... » .

وقال ﷺ :

– « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا . قيل : ومارياض الجنة ؟

قال : مجالس الذكر .

وكان عمر – رضى الله عنه – يقول لمعاذ بن جبل :

– « قم بنا نؤمن ساعة » .

فيقفان ويقولان : لا إله إلا الله ، لا إله إلا الله .. (جماعة) ويقول عمر : هى ورب الكعبة .

وروى أبو نعيم عن الفضيل بن عياض – رضى الله عنه – قال :

– كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا ذكروا الله تعالى تمايلوا يمينًا وشمالا ، كما تتمايل الشجرة فى الريح العاصف إلى قدام ثم ترجع إلى الوراء .

ومن هذا أخذ بعض الذاكرين طريقتهم فى الذكر على هذه الصورة ، وإنما يحصل الوجد بمقدار التذوق ، وتهتز الجوارح بمقدار صدق الشعور ، على ألا يخرج

الذاكرون عن مقام الخشية لله التى تفسدها عربدة الجوارح ومزامير الشيطان.

يقول الله تبارك وتعالى:

(اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ)[1].

وفى وصف أحوال الذاكرين يمتدح الإمام على رضى الله عنه أحدهم فيقول:

« إن كان فى الغافلين كُتب فى الذاكرين، وإن كان من الذاكرين لم يكتب من الغافلين ».

ذلك أن من الذاكرين من تكون ألسنتهم ناطقة وقلوبهم غافلة، وإن من الذاكرين من تصمت ألسنتهم وتكون قلوبهم مشتغلة بذكر الله.

هذا وإن جماع هذه المعانى كلها أن يكون الله - تبارك وتعالى - حاضرًا فى قلبك وسلوكك وغايتك، لا تغفل عن هذه الحقيقة الكبرى مهما انصرفت بك الشواغل واستبدت بك الأهواء. فإذا كنت ذاكرًا الله تعالى فى سكناتك وحركاتك، فى أقوالك وأفعالك، فى قصدك وغايتك، لم تحد عن الطريق المستقيم فى علاقتك بالله وعلاقتك بنفسك وعلاقتك بالناس...

وبذلك تستحق وعد الله - تبارك وتعالى فى قوله:

(اذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ).

- (ولَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ!).

---

(١) الآية ٢٣ سورة الزمر.

١٨

رضا الله .. وسخط الناس

المؤمن الحق هو الذى يعبد الله مخلصًا له الدين ، يأتمر بأوامره وينتهى عن نواهيه . لا تأخذه فى الله لومة لائم ، يلتمس رضا الله فيما يقول ويفعل ولو أغضب الناس جميعًا . ولا يمارى فى الحق أو يحيد عنه التماسًا لرضا من هو أقوى منهم ، أو مجاملة لقريب أو صديق . ومثل هذا الإنسان المؤمن يكون دائمًا فى رعاية الله وحمايته وإن سخط عليه الناس وتوعدوه ، فهو غنى بالله عن خلقه ، عزيز بجاهه الذى لا يطاوله جاه ، قوى بسلطانه الذى يقهر كل سلطان .

والمؤمن الذى يبلغ هذه المرتبة من الإيمان بالله ، لا يبلغها إلا بعد أن يروض نفسه على الصبر والمجاهدة ، وإدراك قيمته الحقيقية فى هذه الحياة وقيمة الآخرين ، والتمسك بحبل الله القوى المتين .

والتماس رضا الله إنما يكون بالتزام حدوده ، وأداء فرائضه ، والجهاد فى

سبيله ، والتقرب إليه بصالح الأعمال . وهذه كلها وسائل تحتاج إلى إرادة قوية ، وبصيرة واعية ، ونفس زكية . لأنها وسائل تقوم على المجاهدة والعزيمة والبذل ، وهى صفات لا يطيقها إلا من راض نفسه على احتمال أعبائها . وهؤلاء قد يكونون قلة فى المجتمع بين سواد الناس ، ولكنهم قلة قوية قادرة ، تثبت على الحق فلا تضعف لها إرادة ، ولا تميل مع الأهواء حيث يميل الناس . ولقد أثنى الرسول ﷺ على أمثال هؤلاء فقال : طوبى للغرباء .

قيل : ومن الغرباء يارسول الله ؟ قال : « الذين يصلحون حين فساد الناس » .

ومن هنا كان أمثال هؤلاء « الملتزمين » عرضة للسخرية فى المجتمعات التى لا تدين بمبادئهم ، ولا تلتزم بما تفرضه هذه المبادئ من حدود وقيود . وقد يتعرضون لما هو أشد من السخرية والاستهزاء ، قد يتعرضون للمطاردة والإيذاء ، كما تعرض الرسول والأنبياء من قبله ، وأصحاب المبادئ الإنسانية فى سبيل أداء رسالاتهم لكثير من الأذى الذى وصل فى حالات كثيرة إلى حد الموت .

(فَما وهَنوا[1] لما أصابهم فى سبيل الله وماضعُفُوا وما استكانُوا واللهُ يُحبُّ الصَّابِرين)[2] .

وكان الله دائمًا مع رسله وأنبيائه والداعين إلى طريقه ، يؤيدهم بنصره ، ويكلؤهم[3] برعايته ، حتى تكون كلمة الله هى العليا . فقد ألقى القوم إبراهيم - عليه السلام - فى النار ، فقال الله عز وجل :

---

(١) ضعفوا .

(٢) الآية ١٤٦ سورة آل عمران .

(٣) يحرسهم .

(يانَار كُونى بردًا وسلامًا علَى إبراهيم)[1] .

وائتمر مشركو مكة بمحمد ﷺ ليقتلوه . وحين أوشكوا أن يكتشفوا مخبأه فى الغار نجاه الله من شرهم وحماه من كيدهم وكتب النصر لدينه .

(إلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَد نَصرهُ الله إذْ أخْرجه الَّذين كَفَرُوا ثانى اثْنَين إذْ هُمَا فى الغار إذْ يقولُ لصاحبه لا تحزَنْ إنَّ الله معنَا . فأنزل الله سكينَتَهُ علَيه وأيَّده بجُنُودٍ لَّم تَرَوْهَا ، وجعل كَلمةَ الَّذين كَفَروا السُّفلَى وكَلمة الله هى العُلْيا و الله عزيز حكيمُ)[2] .

وما من داع إلى الحق أو مستمسك به إلا لقى فى سبيل دعوته واستمساكه بالحق كثيرًا من المعارضة والمناوأة والإيذاء . إنها ضريبة الإيمان بالحق والثبات عليه ، يؤديها المؤمن طيبة بها نفسه ، ليكون جديرًا بالمستوى الذى بلغه والذى يمتاز به على سائر الناس .

فإذا بلغ الإنسان فى جهاده مرتبة الشهادة فتلك أسمى المراتب ، إنه الامتحان الكبير الذى أعده الله للصفوة من عباده . يقول الله تعالى :

(... وليعْلَم اللهُ الَّذين آمنُوا ويتَّخذَ مِنُكُمْ شُهدَاء)[3] .

وقد يتعرض الإنسان فى حياته لمواقف تجعله فى حيرة بين التزام جانب الحق ولو أغضب الناس ، وبين مجاراتهم فى الباطل ولو أغضب ربه وتنكر لمبادئه . إن

---

(١) الآية ٦٩ سورة الأنبياء .

(٢) الآية ٤٠ سورة التوبة .

(٣) الآية ١٤٠ سورة آل عمران .

الرسول ﷺ ينقذك من هذه الخيرة حيث يقول :

« من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله تعالى مئونة الناس . ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله تعالى إلى الناس » .

وحين تكون المقابلة والاختيار بين رضا الله بسخط الناس ، وبين رضا الناس بسخط الله . فإنها تكون صفقة رابحة لمن يختار رضا الله عز وجل ولو سخط عليه الناس جميعًا . إنه بذلك يكون فى جانب الحق فلا يضيره أن يكون غيره على الباطل ، وإن الله ليغنيه عن الناس ويكفيه شرهم وأذاهم .

(إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عنِ الَّذِين آمنُوا)[1] .

أما الذى يختار رضا الناس بسخط الله فتلك هى الصفقة الخاسرة ، وذلك هو الخسران المبين .

ذلك لأن الإنسان لا يملك لغيره نفعًا ولا ضرًّا ، إلا ما قدر الله أن يكون . يقول الرسول ﷺ :

« . . . واعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمعتْ علَى أَنْ ينْفَعُوكَ لَمْ ينْفَعُوكَ إِلَّا بشَىءٍ قَدْ كَتَبهُ اللهُ لَكَ ، وإِنِ اجتمعت على أن يضروك لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك » .

وأنت حين تلتمس رضا أحد من أصحاب الجاه أو ذوى القربى بسخط الله ، فتجاريه فى الباطل ، وتؤدى له شهادة الزور ، وتشاركه فيما يقترفه من الآثام والمنكرات ، طمعًا فى جاهه أو ماله ، أو مجاملة له أو استحياء منه ، إنما تكون بذلك قد قطعت صلتك بالله ، وبعت نفسك لإنسان مثلك ، فإما أعطاك فهو يمن عليك العطاء ويستذل به كرامتك ، وإما حرمك فتكون قد خسرت نفسك

---

(١) الآية ٣٨ سورة الحج .

وخسرت ما كنت تطمع فيه من أعراض الحياة الزائلة .

وأنت حين تركن إلى أمثال هؤلاء فتقع معهم فيما يسخط الله التماساً لرضاهم ، ثم تحين ساعة الحساب في الدنيا أو في الآخرة ، لن تجد من هؤلاء أحداً إلى جوارك يحميك أو يدافع عنك ؛ مهما كان ذا جاه وسلطان ومال ؛ بل إنهم سرعان ما يبتعدون عنك ويتبرءون منك ، ويقطعون ما بينك وبينهم من الروابط والأسباب .

(ولَوْ يرى الَّذِين ظَلَمُوا إِذْ يرَوْن الْعَذَاب أَنَّ الْقُوَّةَ للهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَاب . إِذ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ . وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً[1] فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ، كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّار)[2] .

ويقول الله تعالى في أمثال هؤلاء :

(الْأَخِلَّاءُ[3] يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ)[4] .

ولقد يفرض عليك الواجب أن تنتصر لأخيك . نعم تنتصر له ولكن بالحق ، فلا تعينه على الظلم لتكتسب رضاه ، بل تمنعه عن الظلم وبذلك تنصره على هواه . قال ﷺ :

---

(١) رجعة إلى الدنيا .

(٢) الآيات من ١٦٥ إلى ١٦٧ سورة البقرة .

(٣) الأصدقاء .

(٤) الآية ٦٧ سورة الزخرف .

« انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا .

قيل : ننصره مظلومًا يارسول الله ، فكيف ننصره ظالمًا ؟

قال : تمنعه عن الظلم » .

ولقد بين الله عز وجل حدود الطاعة الواجبة لمن لهم حق الطاعة كالوالدين مثلا ، فلم يجعله حقًا مطلقًا فى كل أمر من الأمور حتى فيما يغضب الله ، بل قيد هذا الحق بقيوده وربطه بحدوده . قال تعالى :

(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ [1] وَفِصَالُهُ فِى عَامَيْنِ : أَنِ اشْكُرْ لِى وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىَّ الْمَصِيرُ . وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ، وَصَاحِبْهُمَا فِى الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ، وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ، ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) [2] .

نعم ، لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، لأن الله أولى بالطاعة وأحق بأن تلتزم حدوده وتجتنب محارمه ويلتمس رضاه .

ولقد قال أبو بكر – رضى الله عنه – حين تولى الخلافة : « أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم » .

هذه المبادئ التى بينها الله ورسوله ، وسار عليها الخلفاء الراشدون والأئمة وأصحاب كل دعوة إلى الحق ، هى فى الواقع تكريم لكرامة الإنسان وتحرير

---

(١) ضعفًا متتابعًا فى حالات الحمل والوضع والنفاس والرضاعة .

(٢) الآيتان ١٤ ، ١٥ سورة لقمان .

لإرادته من أن تضعف أمام الشهوات والمغريات التى تخطف ببريقها القلوب والأبصار ، وتجتذب إليها ضعاف النفوس خوفًا أو طمعًا ، كما أنها حماية للإنسان من نفسه أن تميل بالباطل إلى قريب أو صديق .

(يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ [1] شُهَدَاءَ للهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ) [2] .

فإذا التزم الإنسان العمل بهذه المبادئ ، وآثر رضا الله على رضا الناس ، فقد استمسك بالعروة الوثقى ، وكان فى حمى الله القوى الغنى ، قويًا بالله غنيًا عن الناس . أما إذا آثر رضا الناس بسخط الله ، فإن الله يتخلى عنه ويدعه حيث أراد ، عالة على الناس أعطوه أو منعوه ، أكرموه أو أهانوه .

ومن وكله الله للناس قامت حياته على أساس واه لا يلبث أن ينهار ، وارتبط مصيره بمستقبل غير مأمون ولا مضمون ، لأن صاحب الجاه قد يذهب عنه جاهه :

(وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ) [3] .

ولأن صاحب المال قد يضيع ماله أو يبخل به بعد سخاء ، ولأن القوى قد تضعف قواه ، ولأن الصديق قد ينقلب إلى عدو . . وعندئذ يفقد الإنسان أسناده وتخيب آماله ، لأنه انصرف عن الخالق إلى المخلوقين ، وآثر رضا الناس على رضا الله فكان من الخاسرين .

---

(١) العدل .

(٢) الآية ١٣٥ سورة النساء .

(٣) الآية ١٤٠ سورة آل عمران .

١٩

أضمن لكم الجنة

« اضمنوا لى ستًّا من أنفسكم أضمن لكم الجنة : أصدقوا إذا حدثتم ، وأوفوا إذا وعدتم ، وأدوا إذا اؤتمنتم ، وغضوا أبصاركم ، واحفظوا فروجكم ، وكفوا أيديكم » .

فى هذا الحديث يعرض الرسول ﷺ ست خصال لو مارسها الإنسان وحافظ عليها ضمن الرسول أن يدخله الله الجنة . وهو أعظم جزاء يطمع فيه الإنسان ، وخير مآب ينقلب إليه بعد أن تنتهى حياته على هذه الأرض .

وحين يكون الرسول ﷺ هو الضامن وهو الكفيل فإنها ولا شك صفقة رابحة ، وميثاق قوى ، وجزاء مؤكد محتوم .

وأولى هذه الخصال الست : أن يكون كلامك مطابقًا للحقيقة لا تزييف فيه ولا تحريف ، إذا سئلت عن شىء أجبت بالصدق ، وإذا طلبت فى شهادة ذكرت

الحقيقة ، تقول الحق ولو على نفسك أو الأقربين ، ولا تتحدث إلا بما تعلم ، فلا تردد الشائعات وتكون بوقًا للأكاذيب .

ولقد قال الرسول ﷺ : « عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة . ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا . وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور والفجور يهدى إلى النار ، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا » .

ذلك لأن الصدق أساس الفضائل ، كما أن الكذب مفتاح كثير من الرذائل .

ولقد جاء أعرابى إلى الرسول ﷺ يعرض عليه أن يدخل فى الإسلام ولكنه لا يستطيع أن يتخلى عن كثير من عاداته السيئة ، ومنها الكذب والسرقة وشرب الخمر وغير ذلك من الرذائل . فماذا كان موقف الرسول من هذا الأعرابى وعرضه العجيب . . ؟

لقد وافق الرسول ﷺ على طلب الأعرابى بشرط واحد . هو أن يعاهده على ترك الكذب . وفرح الأعرابى لأن الرسول لم يحرمه إلا من خصلة واحدة وترك له سائر الخصال . . وأسرع يبايعه على الإسلام . ويعاهده على ترك الكذب .

وبدأت التجربة فى حياة الأعرابى وقد ظن أنه حر طليق يمارس من عاداته السيئة ما يشاء إلا الكذب . وهمَّ أن يسرق ولكنه تذكر العهد الذى بينه وبين الرسول ، وقال فى نفسه : لو سألنى الرسول ﷺ هل سرقت ؟ فهل أصدق فيقيم علىَّ الحد ، أو أكذب وقد عاهدته على ترك الكذب ؟ فانصرف عن السرقة .

ومرة أخرى هم الأعرابى أن يشرب كأسًا من الخمر ، ولكنه أفاق لنفسه وهو يقول : لو سألنى الرسول — ﷺ — هل شربت خمرًا ؟ فهل أصدق فيقيم على الحد ، أو أكذب وقد عاهدته على ترك الكذب ؟ فانصرف عن شرب الخمر .

وهكذا كان كلما حاول أن يمارس عادة من عاداته السيئة ، تذكر العهد الذى

بينه وبين الرسول على ترك الكذب ، فيترك هذه العادة السيئة . حتى تخلص بترك الكذب من جميع ما كان يقترف من رذائل وسيئات . .

على أن هناك نوعًا من الكذب يجوز أن تمارسه . . وهو ما تقصد به إصلاح البين ، والتوفيق بين المتخاصمين . كأن تروى لأحدهما الكلمة الطيبة والنية الحسنة على لسان صاحبه ، فتهدأ بذلك حدة الخصومة فى نفسه ، وتتهيأ القلوب للتسامح والصفاء .

والخصلة الثانية التى ذكرها الرسول ﷺ فى حديثه وجعلها مما يؤهل الإنسان لدخول الجنة ، وهى الوفاء بالوعد ، إذا وعدت بشىء فلابد أن تفى به ، ذلك موقف الإنسان الذى يحترم كلمته ويحافظ على كرامته بين الناس ، إن هذا الوعد الذى تبذله ترتبط به عند الطرف الآخر مصلحة لا تتحقق إلا إذا وفيت بما وعدت ، فإذا أخلفت موعدك تعرض صاحبك لمتاعب أو مخاطر أنت المسئول عنها أمام ضميرك وأمام الناس .

فالصانع الذى يحدد موعدًا لإنجاز صنعته ، والمدين الذى يحدد موعدًا لأداء دينه ، والصديق الذى حدد موعدًا للقاء صديقه . . كل أولئك عليهم واجب الوفاء . ومن يعرف أنه لا يستطيع أن يفعل كان عليه ألا يرتبط بهذا الموعد ، وألا يصم نفسه بوصمة النفاق . فقد قال الرسول ﷺ : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان » .

أما أداء الأمانة ، فهى ثالثة الخصال التى تدخل الجنة . والأمانة تشمل كثيرًا من الأمور : العمل الذى تؤجر عليه أمانة بين يديك ، أهلك وأولادك أمانة أنت راعيها ومسئول عنها . أجر العامل الذى تستخدمه أمانة يجب أن تؤديها قبل أن يجف عرقه . الوديعة التى استُحفِظْتَ عليها أمانة تحافظ عليها وتردها عند طلبها . أموال اليتامى أمانة فى ذمتك ترعاها حتى يبلغوا رشدهم ويأخذوا أموالهم . كلمة السر

يفضى بها إليك صاحبك أمانة تفرض عليك الكتمان ؛ إلا أن تكون كلمة شر وبغى وعدوان . . .

يقول الله تعالى :

(إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا . .) [1] .

ويقول تعالى فى وصف المؤمنين :

(وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ) [2] .

ويقول ﷺ : « لا إيمان لمن لا أمانة له » .

وأما الرابعة فهى غض البصر عن محارم الله . ألا ينظر الإنسان إلى ما لا يجوز كشفه من المرأة ، ولئن وقع بصره على شىء من ذلك فعليه أن يصرف بصره ولا يتبع النظرة بأخرى . . . إن له النظرة الأولى التى لم يستطع أن يتفاداها . أما بعد ذلك فهو انقياد للشهوة ومنزلق للفساد .

وغض البصر واجب كذلك بين المرء وجيرانه . لما يكون بينهما من تكاشف الأحوال ، ولقد تحدث الشاعر العربى القديم عن قانون الشرف والحفاظ على حقوق الجار حيث قال :

وَأُغُضُّ طرفى إنْ بَدَتْ لى جَارَتى
حَتَّى يُوَارِى جَارَتِى مَأْوَاهَا

ولقد جعل الرسول ﷺ للطريق حقوقًا يجب أن يحافظ عليها من يضطره عمله أو مجلسه إلى أن يتخذ مكانه هناك . ومن هذه الحقوق غض البصر . . ولعل فى

---

(١) الآية ٥٨ سورة النساء .

(٢) الآية ٣٢ سورة المعارج .

ذلك ما ينبه الكثيرين إلى سوء ما يفعلون وهم يجلسون على أرصفة المقاهى يؤذون الرائحات والغاديات بالنظرة المسمومة والكلمة النابية .

لهذا كان غض البصر عن محارم الله ، مجاهدة للنفس عن الانزلاق وراء الشهوات . وترفعًا عن التبذل والمجون ، وحماية لأعراض الناس ، ورعاية لآداب المجتمع .

وأما خامسة الخصال فهى حفظ الفروج : العفة والحصانة عند الرجل والمرأة . . المحافظة على كرامة الإنسانية فى الإنسان . . الطريق الشريف النظيف للحياة الزوجية الكريمة . . ولهذا كانت عقوبة التفريط فى ذلك وتعدى حدود الله عقوبة شديدة رادعة تصل إلى حد الرجم . وما استهان قوم بذلك إلا فشت فيهم الأمراض ، واختلطت الأنساب ، وانحلت روابط المجتمع ، وذلت كرامة الإنسان .

وأما الخصلة السادسة من الخصال التى ضمن الرسول أن يدخل صاحبها الجنة فهى فى قوله ﷺ « كفوا أيديكم » . ذلك أن يكف الإنسان يده عن الأذى وعما حرمه الله . أن يكون عمل يده للبناء لا للهدم ، لإماطة الأذى عن الطريق لا بإلقاء القمامة أمام أبواب الجيران . لمساعدة الضعيف لا لمدافعته . للبذل والعطاء لا للسلب والاغتصاب . للدفاع عن الحق لا للبغى والعدوان .

٢٠

ثلاث . . . يكرهها الله

إذا كانت هناك خصال يحبها الله ويجزى عليها بالجنة ، لما لها من الأثر الطيب فى حياة الفرد والمجتمع ، فإن هناك خصالا يكره الله أن يتصف بها الإنسان المؤمن . والله – جل شأنه – لا يكره للمؤمن إلا ما يعيبه وينقص من إيمانه ، ويجلب عليه وعلى المجتمع الضرر والشقاء .

قال رسول الله ﷺ : « إن الله كره لكم ثلاثًا : قيل وقال ، وإضاعة المال ، وكثر السؤال » .

إن الله يكره القيل والقال . . يكره أن ينقل المرء كلمة السوء ويذيعها بين الناس ، فيوقع هذا بذاك ، ويوغر[1] صدر الأخ على أخيه ، ويشيع الفاحشة فى المؤمنين ، فكم من كلمة تناقلتها الألسنة من فم إلى أذن ، يضيف إليها كل ناقل من

---

(١) يملؤه غيظًا وحقدًا .

تفسيره وتخيله ما يشاء حتى تبلغ الكلمة من تعنيه ، فتكون سبباً فى قطع الأرحام . أو هدم الحياة الزوجية . أو إشعال نار الفتنة بين الناس .

ولقد يسمع الإنسان فى أحد المجالس كلاماً تتزلق به الألسنة فى حق هذا أو ذاك ، وهنا تقضى عليه المروءة والأمانة بأن يكتم ما سمع ، فلا ينطلق بهذا الكلام يردده كالمذياع فى كل مكان . وقد قيل : « المجالس أمانة » .

والأمر الثانى الذى حذر الرسول منه هو إضاعة المال : فإن المال نعمة من نعم الله تقتضى الشكر ، والشكر إنما يكون برعاية هذه النعمة ، والمحافظة عليها وحسن استثمارها ، وإنفاقها فى وجوهها المشروعة .

والمحافظة على المال لا تكون بحبسه واكتنازه ، فما خلق المال إلا للتداول بين الناس ، وتحقيق النفع لهم عن طريق استثماره فى المشروعات النافعة ، وإنفاقه فى أوجه الخير . ولقد توعد الله الذين يكنزون المال ويحبسونه عن مصارفه بالعذاب الشديد .

كان الرسول ﷺ جالساً فى المسجد حين جاء إليه رجل يسأله شيئاً ، فقال الرسول : اجلس ، فسيرزقك الله . ثم جاء ثان وثالث . وأقبل رجل ومعه أربع أواق من الفضة فقدمها بين يدى الرسول وقال له : يارسول الله ، إن هذه صدقة . فدعا الأول فأعطاه أوقية . ثم دعا الثانى فأعطاه أوقية . ثم دعا الثالث فأعطاه أوقية . وبقيت الأوقية الرابعة . فعرضها للقوم فما قام أحد . فلما كان الليل وضعها تحت رأسه وقد افترش عباءته وظل ساهراً لا يطرق النوم جفنه ، فيقوم فيصلى ، ثم يرجع إلى فراشه فلا يستطيع النوم ، فيعود إلى صلاته . . فعل ذلك مرات عدة ، حتى ظنت به عائشة — رضى الله عنها — أمراً فقالت له : يارسول الله ، هل بك شىء ؟ فقال : لا .

فقالت : أفجاءك أمر من الله ؟ قال : لا .

قالت : إنك صنعت منذ الليلة شيئًا لم تكن تصنعه . فأخرج الأوقية وقال لها : هذه التي فعلت في ما ترين . إني خشيت أن يقبضني الله ولم أُمضها[1] .

أوقية من الفضة أقضت[2] مضجع الرسول ﷺ ، فظل ساهرًا يذود عن عينيه النوم ، لأنه يخشى أن يدركه الموت في ليلته تلك قبل أن ينفق هذه الأوقية في سبيل الله .

وإنفاق المال في وجوهه المشروعة لا يعتبر مضيعة للمال ، ولكنه تنمية له يعود على صاحبه بالربح الحلال ، كما يعود على المجتمع بالمنفعة العامة التي يفيد منها جميع أفراده ومنهم صاحب المال نفسه .

ولقد حث الله على إنفاق المال في مصارفه المشروعة ، ووعد الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله بأن يرد إليهم ما أنفقوا أضعافًا مضاعفة . وضرب لذلك مثلا فقال سبحانه وتعالى :

(مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)[3] .

وإن في قصة عبد الرحمن بن عوف – رضي الله عنه – لمثلا رائعًا على ما يصيب المنفق في سبيل الله من بركة في الرزق وزيادة في المال . فقد هاجر عبد الرحمن ابن عوف إلى المدينة فقيرًا لا يملك شيئًا ، فآخى الرسول ﷺ بينه وبين سعد

---

(١) أنفقها .

(٢) جعلت فراشه كالشوك .

(٣) الآية ٢٦١ سورة البقرة .

ابن الربيع وكان من نقباء[1] الأنصار . فعرض عليه ابن الربيع أن يقاسمه أمواله وأن يطلق له أجمل زوجتيه . فقال له عبد الرحمن بن عوف : بارك الله لك فى أهلك ومالك . وطلب منه أن يدله على السوق . فباع واشترى وربح . ومازال يحترف التجارة حتى صار من الأغنياء .

وكان عبد الرحمن بن عوف مع غناه هذا أجود ما يكون فى سبيل الله . تصدق مرة بنصف ماله . ثم تصدق بأربعين ألف دينار . وجهز مرة خمسمائة فرس فى إحدى الغزوات . ثم حمل على خمسمائة راحلة فى سبيل الله . وكان كلما أنفق مالا عوضه الله أضعاف ما أنفق .

ولقد قدمت لعبد الرحمن بن عوف سبعمائة راحلة تحمل البر والدقيق والطعام ، فلما دخلت المدينة أحدث دخولها ضجة عظيمة بين الناس . فبلغ عائشة – رضى الله عنها – ذلك فقالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : عبد الرحمن لا يدخل الجنة إلا حبوًا . فلما بلغه ما قالت عائشة ذهب إليها فقال : يا أمه ، إنى أشهدك أنها بأحمالها فى سبيل الله . إنه لا يريد أن يدخل الجنة حبوًا تثقل خطاه هذه الأموال ، ولهذا أنفقها فى سبيل الله ليدخل الجنة هرولة !

وقال طلحة بن عبد الله : كان أهل المدينة عيالا على عبد الرحمن بن عوف : ثلث يقرضهم ماله ، وثلث يقضى دينهم ، وثلث يصلهم ، أى يقدم لهم الهدايا والصلات .

هذا هو عبد الرحمن بن عوف الذى كانت حياته سخاء وعطاء وبذلا فى سبيل الله . أنفق من ماله ما أنفق فكان ماله يزيد مع الإنفاق أضعافًا مضاعفة ، حتى توفى عن ثلاثمائة وعشرين ألف دينار ، وثلاثة آلاف شاة ، وألف بعير ، ومائة فرس ، وأرض تزرع على عشرين بئرًا فى ظاهر المدينة .

---

(١) زعماء .

إنها الحبة المباركة التى تنبت سبعمائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء .

أما إضاعة المال التى نهى الرسول عنها ، والتى قال إنها إحدى ثلاث يكره الله أن يتصف بها المسلمون ، فهى إنفاق المال فى غير وجوهه المشروعة : الإسراف ، والمقامرة ، وسوء استثمار المال . . كل ذلك يودى إلى ضياعه ويورث صاحبه الفقر والندم .

وأما الثالثة وهى كثرة السؤال فإنها تعرض الإنسان للشدة بعد اليسر ، وللضيق بعد السعة . قال ﷺ : « إنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم ، واختلافهم على أنبيائهم . فإذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شىء فدعوه » .

وليس السؤال بقصد الاستزادة من العلم أمرًا مكروهًا ، ولكن السؤال المكروه هو ما يتجاوز الحد ، ويتحول إلى ما يشبه الفضول ، ويتسم بروح الجدل والتنطع . وقد يؤدى مثل هذا السؤال إلى جواب فيه ما يسوء .

يقول الله تعالى :

(يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ)[1] .

ولقد كانت كثرة السؤال من الصفات الذميمة التى اتصفت بها بنو إسرائيل ، بدافع اللجاجة وسوء الأدب مع الله وأنبيائه .

(وإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا[2] ؟ قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ . قَالُوا

---

(١) الآية ١٠١ سورة المائدة .

(٢) هل تهزأ بنا .

ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ[1] وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ[2] بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ . قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا ؟ قَالَ إِنَّهُ يَقُول إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِين . قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنُ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ . قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا ذَلولٌ[3] تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ[4] لَا شِيَةَ فِيهَا[5] . قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ)[6] .

وهكذا كانت كثرة سؤال بنى إسرائيل فى موضوع البقرة التى أمرهم الله بذبحها سببًا فى التشديد عليهم . فلو أنهم نفذوا أمر الله كما ألقى إليهم أول مرة لتقبل الله منهم أية بقرة يذبحونها . ولكنهم طبعوا على العناد والتنطع فظلوا يسألون موسى ويكثرون من السؤال . . وفى كل مرة يأتيهم جواب يضيق عليهم اختيار البقرة ويلزمهم بأن تكون ذات صفات معينة وقد كانوا فى حل لولا كثرة السؤال .

---

(١) كبيرة السن .

(٢) متوسطة السن .

(٣) لم تذلل بالعمل .

(٤) بريئة من العيوب .

(٥) لا لون فيها يخالف لون سائر جلدها .

(٦) الآيات ٦٧ - ٧١ سورة البقرة .

٢١

دع ما يريبك

والأمر الذى يريب هو الذى يجعل صاحبه فى موضع الريبة والتهمة ، فيظن الناس به الظنون ، وهو الأمر الذى يثير فى نفس صاحبه الشك : أحق هو أم باطل خطأ أم صواب ولهذا يقول الرسول ﷺ : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » . . ذلك أن من الأمور ما يفعله الإنسان بنية طيبة وقصد سليم ، ولكنه قد يثير الظنون ويبعث على التهمة ولو بغير حق . ومثل هذه الأمور يجب على العاقل أن يجنب نفسه هذه المواقف . وألا يستهين بأسبابها اعتمادًا على حسن نيته وسلامة قصده ، حتى لا يلصق بنفسه تهمة هو منها برىء ولا يعرض غيره للوقوع فى سوء الظن والاتهام الباطل . قال ﷺ : « رحم الله امرأ جَبَّ الغيبة عن نفسه » . أى قطع أسباب الغيبة وأغلق أبوابها بالبعد عن مواقف الريبة والظنون .

فهذا الموظف الذى يستقبل صاحب الحاجة بجفاوة بالغة ، ويظهر له من

الاهتمام بأمره ما يتجاوز الحد المألوف . وبتطوع لإنجاز حاجته عند هذا أو ذاك من زملائه الموظفين . . قد يكون حسن القصد فيما يفعل ، وقد يكون على علم بشدة الحاجة عند هذا المواطن ، ولكنه قد يطلق بذلك علامات الاستفهام من أنظار زملائه ، ويثير فى نفوسهم الريبة والشك فى دوافع هذه الحفاوة وهذا الاهتمام . فإذا لم يكن على علم بشدة الحاجة عند هذا المواطن ، وليست له علاقة تبرر هذا السلوك ، أثار كذلك الريبة والشك فى صاحب الحاجة ، وجعله يظن به الظنون .

وليس معنى هذا أن يمتنع الموظف عن حسن استقبال أصحاب الحاجة ، أو يتراخى فى إنجاز حاجتهم ، فإن هذا التصرف كالتصرف الأول . . كلاهما يتجاوز القصد وحد الاعتدال . وحسب الموظف والعامل وكل من يرتبط عمله بمصالح الجماهير ، أن يؤدى واجبه كما ينبغى : معاملة طيبة للناس وإنجاز للعمل فى موعده ، وأداء هذا العمل على وجهه الصحيح دون تفرقة فى هذا السلوك بين شخص وآخر . إن فعل كل عامل ذلك ، وكان هذا هو السلوك العام بين العاملين ، لم يكن العامل فى تصرفه الطيب هذا مع الناس موضع الظن والريبة ، ولم يجنح بعض أصحاب الحاجة إلى الأساليب المنحرفة فى قضاء حوائجهم .

وقد تكون أرملة جارك وبناته فى حاجة إلى من يرعى شئونهن ويقضى مصالحهن ، فتكثر من التردد عليهن لقضاء هذه المصالح ، وأنت تستشعر بذلك حق جارك عليك فى أهله . ولكن هذا الموقف الإنسانى الكريم إذا تجاوز حدوده أثار حولك وحول هذه الأسرة كثيرًا من الظنون ، فتسىء بذلك إلى نفسك وإلى أرملة جارك وبناته من حيث تريد الإحسان .

على أن للأمر وجهًا آخر يجدر أن يتدبره الإنسان إذا كان موقعه فى الطرف المقابل ، فكما يجب على الإنسان أن ينأى بنفسه عن مواقف الريبة والظنون ، كذلك يجب أن يكون الإنسان حسن الظن فيما يرى أو يسمع ، وألا يجرى وراء

الأوهام والشكوك ، أو تأويل بعض التصرفات والمواقف بدوافع مريبة . يقول الله تبارك وتعالى :

(يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ)[1] . وذلك حتى لا يقع الإنسان فى إثم كبير ، وقد تؤدى ظنونه الباطلة إلى إلحاق الأذى بمن أساء بهم الظنون ، وإلى إشاعة الفاحشة وإشعال نار الفتنة بين الناس .

والظن يكون عادة صورة من نفس صاحبه ، فقد يرى الرجل موقفًا بين اثنين فيحسن الظن بهما ولا يرى فيه إلا خيرًا ، ويرى هذا الموقف نفسه رجل آخر فيسىء الظن بهما ولا يرى فيه إلا شرًّا . . ذلك لأن الأول طيب النفس سليم النية ، فذلك ينعكس على سلوكه وتصوره وظنه بالناس ، والآخر خبيث النفس مريض القلب ، فهو لا يرى فى الناس ولا يظن بهم إلا ما تعكسه نفسه الخبيثة وقلبه المريض ، من ظنون سيئة وأوهام سوداء .

ولقد توعد الله باللعنة والعذاب العظيم أمثال هؤلاء ممن يظنون ظن السوء ويفترون على الناس غير الحق ، فقال سبحانه وتعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)[2] .

---

(١) الآية ١٢ سورة الحجرات .

(٢) الآية ٢٣ سورة النور .

وقال تعالى :

(وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا)[1] .

وقال تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ)[2] .

وإن من البعد عن الريبة فى النساء ، وتجنب مواقف التهمة والظنون ، أن تلتزم المرأة حدود الاعتدال والقصد فى الزينة ، وأن تكون جادة فى السير والحديث ، حتى لا تثير حولها الريبة أو تطمع فيها ضعاف النفوس . يقول الله تبارك وتعالى مخاطبًا أمهات المؤمنين وهن القدوة لسائر المؤمنات :

(يَانِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ ، فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا)[3] .

ويقول عز وجل :

(يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ

---

(١) الآية ٥٨ سورة الأحزاب .

(٢) الآية ١٩ سورة النور .

(٣) الآية ٣٢ سورة الأحزاب .

عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ، ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا)[1] .

وهناك معنى آخر من معانى الريبة ، فى حديث الرسول ﷺ ، حيث يقول : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » . هذا المعنى هو الشك والحيرة بين أمرين أيهما يأخذ الإنسان وأيهما يدع . والميزان الذى يرجح كفة على أخرى فى مثل هذا الموقف هو قول الرسول ﷺ : « الحلال بين والحرام بين ، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس ، فمن اتقى المشتبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى المشتبهات كراعٍ يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله فى أرضه محارمه » .

نعم : الحلال بين والحرام بين ، كلاهما واضح تراه العين ويدركه العقل ويحسه القلب ، وإذا واجهت الإنسان أمور لا يعلم وجه الحق فيها تركها إلى ما يعلم وابتعد بنفسه عن هذه الأمور المشتبهات . إنه بذلك يصون دينه وعرضه . أما إذا استهان بالأمر وترك ما يعلم وتجاوز الحدود الواضحة إلى ما وراء هذه الحدود . فإنه قد لا يسلم من الوقوع فى الخطأ والإثم ، مثله فى ذلك مثل راعى الغنم الذى يترك الكلأ المباح فى الأودية والمراعى العامة ، ويحوم بغنمه حول المزارع فلا يأمن أن تنزل بها غنمه ؛ ويقع بسبب ذلك فى كثير من المشكلات .

ألا وإن حمى الله فى أرضه محارمه . فينبغى ألا يقترب الإنسان من هذا الحمى حتى لا يقع فيما حرم الله ، وألا يستهين بالأمور المشتبهات فيقع فى الإثم من حيث لا يدرى ، وخير له أن ينأى بنفسه عن ذلك كله ، وأن يدع ما تحيط به الريبة والشكوك إلى ما هو بيِّن واضح لا لبس فيه ولا غموض .

---

(١) الآية ٥٩ سورة الأحزاب .

وهناك مرتبة أعلى من ذلك . وسلوك أكثر حرصًا وأسلم عاقبة . وهو ما يفسره قول الرسول ﷺ : « لا يكون الرجل من المتقين حتى يدع مالا بأس به مخافة مما به بأس » وهناك ميزان آخر يستطيع الإنسان أن يفرق به بين الأمور المشتبهات وغيرها . إنه ميزان يحمله كل إنسان فى حنايا صدره ، وهو ميزان لا يخطئ التقدير ولا يخدع صاحبه ، ذلك هو قلب الإنسان الذى بين جنبيه .

فإذا واجهت موقفًا كان عليك أن تختار فيه بين أمرين ، فاعرض الأمرين على قلبك واستمع إلى دقاته . . . إنه يعطيك الجواب الحاسم الصريح . . ما اطمأن إليه قلبك فهو الحق الذى ينبغى عليك اتباعه وإن خالف هواك ، وما اضطرب منه قلبك فهو الباطل الذى يجب عليك اجتنابه وإن هفت إليه نفسك .

وبذلك تنأى بنفسك عن مواطن الريبة والظنون إلى مواطن الحق واليقين .